مكتشف طريق الهند بحراً

انقضاء اربعمائة سنة على موت ڤاسكودي غاما

أحتفل البورتغاليون في الاسبوع الاخير من السنة الماضية في عاصمتهم لشبونة والفرضة البحرية تاغوس بانقضاء اربعمائة عام على موت الرحالة الشهير ڤاسكودي غاما مكتشف طريق الهند بحراً وصاحب الفتوحات الكثيرة على سواحل افريقية الجنوبية والشرقية . واشتركت في هذا الاحتفال بوارج كثيرة من اساطيل الدول

ولد دي غاما سنة ١٤٦٠ في بلدة سينز بمقاطعة المتيجو من اعمال البورتغال . وما يعرف عن حداثته قليل جداً. لكن اكتشاف كولمبوس لاميركا سنة ١٤٩٢ ورحلات بعض البحارة من الاسبان والبورتغاليين وغيرهم كان باعثاً لمانوئيل الاول ملك البورتغال على ان يجهز اسطولاً من المراكب الكبيرة للسفر الى الهند عن طريق الرأس الرجاء الصالح ووضع على رأسه ڤاسكو دي غاما الذي اشتهر من قبل في حروب البورتغال مع قشطالة وعرف بمهارته في سلك البحار

« فخرج ڤاسكو من مرفإ لشبونة باحتفال عظيم وشيعهُ الملك وعظماؤهُ ورجال بلاطه بين هتاف الرجال وزغردة النساء . فاجتاز السواحل الغربية واستولى على جميع السواحل والبلاد التي مرَّ بها في طريقه حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح . ثم تحول بسفنه شمالاً واستولى على السواحل الشرقية فرسا اولاً عند بلاد سماها نتال واخذ بلاد كفروريا واكتشف في طريقه مدغسكر وجزائر القمور والجوان ولم يزل يسير شمالاً محاذياً السواحل حتى وصل الى بلاد سفالة (موزمبيق) فاحتلها ورفع عليها العلم البرتوغالي وهناك اكتشف مناجم الذهب القديمة التي كانت معروفة منذ القدم عند المصريين والرومان والعرب. ويقال انها بلاد ترشيش التي ورد ذكرها في سفر الملوك وقيل ان سليمان الملك كان يأتي منها بالذهب والفضة والقرود والعاج والطواويس (ملوك اول ص ١٠) وبنى ڤاسكو في اكثر البلاد التي احتلها القلاع والحصون ووضع فيها بعض الحامية من رجاله وجعلهم وكلاء لهُ لشراء الذهب والعنبر والعاج وقد وجد الرحالون البرتوغاليون في اسفارهم هذه كثيرين من تجار العرب عند شواطىء نتال والترنسفال وموزمبيق يحملون تراب الذهب في الاكياس وينقلونها الى سفنهم ويأخذونها الى زنجبار وعمان وشبه جزيرة العرب

« ثم استولى على كل الممالك العربية الافريقية الشرقية وهي قطوة وسعداني وشيكوه وبتة وكلوه وبنجاني وملندة وكلها كانت ممالك زاهرة عامرة تحت حكم سلاطينها المستقلين من العرب وقد ذكر ابن بطوطة اكثر هذه البلاد وحكامها في رحلته المعروفة

« ولما وصل فورجالهُ الى مصب نهر زمبسي الكبير ركبوا فيهِ بسفنهم وبنوا على ضفتهِ القلاع والفرض واقاموا فيها ناساً من قومهم للمحافظة عليها وفتحوا اسواقاً عظيمة للتجارة

« ثم استولوا على بقية الشواطىء الشرقية فرسوا في ممبسة وكانت وتتئذٍ مدينة تجارية عامرة فسروا بها لانهم لم يروا مدينة عظيمة مثلها وكان فيها بيوت فخمة وقصور ومبانٍ فاخرة واسواق عظيمة. قال ملطبرون في جغرافيتهِ القديمة « ان اهالي ممبسة كانوا قبل دخول البرتوغاليين من قبائل العرب العرباء وكلهم على حضارة يعيشون بالبذخ الترف وعندهم بعض العلوم والصنائع وكانوا ملمين باحوال التجارة ولهم فيها طرق مفتوحة في داخلية البلاد وسفنهم تمخر في انهارها وتتجر مع عمان وحضرموت والهند »

« ثم استولى القبطان فاسكو على سلطنة ملندة شمالاً وكانت زاهية زاهرة كثيرة المباني واسعة التجارة ورأى فيها جماعة من البنيان وهم طائفة التجار الهنود فاخذ بعضهم الى سفنهِ ليدلوهُ على طريق الهند. وبعد ان استولى على سلطنات لامو ومليندة وكلوة ومقدشو وجميع السواحل الشرقية وجزائرها وطد قومهُ اقدامهم فيها فبنوا فيها القلاع الحصينة ولم تزل آثارها باقية الى الآن وعليها كتابات بلغتهم وعلى بعضها كتابات برتوغالية ازاء الكتابة العربية القديمة »[1]. ثم واصل اسفارهُ حتى وصل الى الهند ورسا في كاليكوت على ساحل ملابار ١٤٩٨ ونصب هناك عموداً من الرخام دليلاً على افتتاحهِ لتلك البلاد جرياً على عادة سار عليها البورتغاليون قبلهُ . والظاهر ان حاكم كاليكوت الهندي احتفى بهِ في البدء لكنَّ التجار وذوي النفوذ خافوا على ضياع تجارتهم باكتشاف سلك بحري حول رأس افريقية الجنوبي قد يحلُّ محلَّ الطرق التجارية البرية فاقنعوا الحاكم بنهي دي غاما عن الشاء مستعمرة تجارية هناك . لكنهُ مكث مدة كافية اطلع في خلالها على احوال الهند وثروتها العظيمة ثم عاد الى بلادهِ عن طريق رأس الرجاء الصالح فوصل البورتغال في سبتمبر (ايلول) سنة ١٤٩٩ . واستقبلهُ الملك احسن استقبال واكرمهُ ومنحهُ الحق ان يلقب نفسهُ « بالدوم » وقطع لهُ معاشاً وارضاً

وتبع رحلة دي غاما الى الهند رحلة اخرى مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة بقيادة

(١) عن مقتطف اكتوبر سنة ١٩١٠ بعنوان « الرحلات الافريقية »

بدرو الفارز كبرال مكتشف برازيل فاسس مستعمرة تجارية برتغالية حال وصوله الى كاليكوت ببلاد الهند وبعد عودته قام اهالي البلاد على البرتوغاليين الذين تركهم في المستعمرة وقتلوهم جميعاً . فاخذت حكومة البرتوغال تستعد للاخذ بالثأر فجهزت عشر سفن مسلحة في لشبونة عاصمتها والقيت مقاليد قيادتها الى كبرال اولاً ثم جعل دي غاما قائداً لها ومنح لقب اميرال الهند . وغادر البرتوغال في اوائل سنة ١٥٠٢ وما وصل الى الهند امام كاليكوت اطلق قنابله عليها ونزل الى البر فبطش باهلها . ثم سار من كاليكوت الى كوتشن وبعد ان عقد معاهدات تجارية معها ومع مدن اخرى على الشاطىء بينها وبين كاليكوت قفل راجعاً الى لشبونة في سبتمبر ١٥٠٣ وسفنه ملآنة بالتحف . فاحتفي به وبمساعديه ومنح امتيازات جديدة وزيد معاشه

بعد رجوعه من رحلته هذه اعتزل الاسفار وسكن في دارم بايثورا إما لعدم رضائه عما ناله من العطف الملوكي لانه كان يطمع باعظم من ذلك او ليتمتع بامتيازاته الكثيرة وثروته الطائلة لانه كان قد صار من اغنى اهالي البورتغال وكان قد تزوج سنة ١٥٠٠ سيدة غنية من عائلة شريفة وُلد له منها ستة اولاد . وبقي من مستشاري ملك البورتغال في مسائل الهند والسياسة البحرية الى سنة ١٥٠٥ ويؤخذ من وثائق تاريخية انه بقي متمتعاً بالعطف الملوكي من ١٥٠٧ الى ١٥٢٢ . ومنح سنة ١٥١٩ لقب كونت على مقاطعة ڤيديجويرا

واتسعت فتوحات البورتغاليين في الشرق فعهد بادارتها الى خمسة حكام بالتتابع كان خامسهم ضعيف العزم سقيم الرأي فاختلت الامور في ايامه . فاستدعى الملك يوحنا الثالث خلف عمانوئيل فاسكو دي غاما من عزلته وسماه نائباً للملك في الهند فغادر لشبونة في ابريل سنة ١٥٢٤ ليتقلد منصبه الجديد وله من العمر حينئذٍ ٦٤ سنة

وحالما وصل الى جوى عاصمة المستعمرة البرتوغالية في الهند بعد سفر خمسة اشهر اهتم باصلاح ذات البين فيها ولكن لم يُفسح في اجله طويلاً ليتم هذا الاصلاح لانه اصيب بحمّى في كوتشن وتوفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٥٢٤ ودفن فيها اي منذ اربعمائة سنة ثم نقلت رفاته الى ڤيديجويرا سنة ١٥٣٨ فالى كنيسة القديسة ماريا في بلم سنة ١٨٨٠

ونتج عن رحلاته هذه ان زادت ثروة البرتوغال فصارت في المقام الاول بين دول اوربا في ذلك العصر ومهّد السبيل للاستعمار الاوربي في الشرق باكتشاف طريق البحر اليه حول رأس الرجاء الصالح